الوحدة الخامسة: الفلسفة وأنماط التعبير (الفصل الثاني) - 3 – تتمة...

إن وظائف اللغة الطبيعية متعددة، فبالإضافة إلى الإقناع هناك التعبير عن الإحساس، و الإخبار، و الوصف الموضوعي، والتعبير عن نظرة خاصة للعالم؛ ويبقى السؤال هو: **هل تبقى كل هذه الوظائف ذات طبيعة حجاجية أي أنها تستهدف التأثير على المتلقي وتغيير رأيه بخصوص موضوع ما، أم أن هذا الدور يقتصر على الحجاج فقط؟**

يجيب صاحب المقالة بأن كل هذه الأجناس تتغيى التأثير على الرأي والسلوك، الأمر الذي يجعلها حجاجية؛ وبالتالي فأغلب الأقوال تسعى إلى التأثير في سلوك المخاطبين، حتى التي تبدو بريئة من هذا المسعى كالشعر مثلا. فرغم تركيز هذا الأخير على الرسالة كرسالة أي التركيز على الشكل الجمالي للقول، فإن هذا لا يلغي طبيعته الحجاجية، وخير دليل على ذلك الأبيات الشعرية لمحمود درويش. رغم أن هذه الأبيات تبدو مجرد عرض وصفي جمالي لأشياء تنتمي إلى الماضي، إلا أنها مترعة بقيم حجاجية قوية، تدفعنا لتذكر ما حدث للشعب الفلسطيني واتخاذ موقف ما.

وخلافا لما يذهب إليه البعض مثل جورج بينيو من أن الخطاب الشعري وبعض الأنماط التعبيرية الأخرى (السيرة الذاتية، والمذكرات ...) غايتها ليست حجاجية؛ يؤكد صاحب المقالة على أنها كذلك، لأنه بقدر ما يتقوى الجانب العقلي في الخطاب يقترب من البرهنة العلمية، ويبتعد عن الحجاج بمعناه المحصور. وبقدر ما يتقوى الجانب العاطفي يقترب الخطاب من الحجاج ويبتعد عن البرهنة. وبذلك يبقى الجانب العاطفي في أجناس محددة من الخطاب كالشعر أساسي في الحجاج، حيث يتم تغليب المقومات العاطفية على المقومات العقلية.

يستدل صاحب المقالة هنا برأي حازم القرطاجني الذي يرى بأن الغرض من الخطابة والشعر يبقى واحدا وهو "إعمال الحيلة في إلقاء الكلام من النفوس بمحل القبول لتتأثر

بمقتضاه. وبذلك يبقى القصد في التخييل والإقناع حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلي عن فعله واعتقاده".

استنتاج

إن جميع أجناس القول ذات طبيعة حجاجية، لأنها كلها تستهدف في النهاية بطريقة أو بأخرى، التأثير على المتلقي وتغيير سلوكه تجاه قضية ما. حتى تلك الأشكال الأدبية التي تبدو لنا بريئة ولا علاقة لها بالحجاج مثل الشعر، فإنها ورغم تركيزها على الشكل الجمالي، إلا أن هذا الشكل لا يخلو من مضمون يدافع عن قضية ما، أو يحمل نظرة تجاه قضية ما، يحاول أن يقنع المتلقي بها. وكل ما تقوى الجانبين الجمالي والعاطفي في قول ما، كلما ابتعد الخطاب عن العلم والبرهنة وأصبحت قوته الإقناعية أكثر.

I – 4 – 3 مهد النظرية الحجاجية

أبدع اليونان القدماء أغلب الميادين المعرفية التي لازالت تحمل نفس الاسم الذي أعطوه لها، ومن بينها الخطابة. لقد فرض الانتقال إلى العيش في المدينة /الدولة على اليونانيين، ضرورة التشاور في أمور المدينة وتدبير شؤونها، وهو الأمر الذي أدى إلى إبداع النظام الديمقراطي. وبالتالي فتح المجال أمام مخاطبة الناس ومحاولة إقناعهم بالكلام، حتى يختاروا مندوبا ما أو يتبنوا رأيا معينا، وبذلك ازدهرت الخطابة في اليونان القديمة.

أدى كل ذلك إلى انحصار مفهوم الفعل في أثينا، في عملية التحكم في الناس وغلبتهم والسيطرة عليهم بالكلام في إطار الحاضرة، وكانت بذلك أثينا مهد المنطق الصوري والجدل والبلاغة الإقناعية (الخطابة). إن استعمال الخطاب الشفوي كوسيلة للتواصل والإقناع، أو باعتباره مصدر إمتاع، أدى إلى انبثاق أغلب الأجناس الأدبية. وأصبحت على إثرها أثينا هي موطن النظرية الحجاجية التي أقام صرحها أرسطو في كتابه الخطابة. حيث تناول هذا الأخير كل مباحث الحجاج السابقة وأعاد صياغتها ولونها التلوين الخاص به، وخاصة تجربة السفسطائيين. كان هؤلاء في الأصل معلمي الخطابة، فبالإضافة إلى الدفاع عن الناس في

المحاكم، كانوا يعلمون هذا الفن للراغبين في ذلك مقابل أجر، حتى أن كبار السفسطائيين كانوا يتقاضون أجورا خيالية مقابل جهدهم، وهو الأمر الذي دفع بأفلاطون إلى تنظيم حملته الشهيرة على الخطابة. **إذن، ما الداعي وراء مهاجمة أفلاطون للخطابة؟ وهل اقتصر رفضه على نوع محدد منها، أم أنه أدانها كلها من دون استثناء؟**

ا – 4 – 4 خطابة أفلاطون

لقد عرف أفلاطون بمعاداته للخطابة باعتبارها تقوم على الرأي (الأهواء والمصالح والرغبات) وليس على الحقيقة. كما أنها تستهدف في المقام الأول الحشود بجميع أنواعها، حيث تغيب كل إمكانية للاعتراض والنقد. ففي ظل هذه التجمعات الكبيرة يصبح من المتعذر وضع الأسئلة أو إبداء عدم الموافقة، وهي عناصر أساسية في كشف زيف قول ما. وتبرز خطورة الخطابة فيما أوضحه جورجياس من أن الخطيب يمكن أن يتكلم في كل شيء، بل ويمكن أن يكون أكثر إقناعا من أي متخصص في مجال ما (مثال الطبيب)، فقط لأنه يعرف كيف يتلاعب بعقول العامة. ومن هنا حذر أفلاطون من الاحتكام إلى العامة، والاستقواء بها.

إلا أن أفلاطون لا يعترض على المناقشة بين طرفين ندين مفكرين، أي ممارسة الجدل. لأن هذا الأخير ينتج المعرفة لا التعبئة أو التحريض الجماهيري. بذلك يقوم الموقف الأفلاطوني تجاه البلاغة على تصورين: الأول هو الرفض (محاورة جورجياس)، بسبب اعتمادها على الرأي الذي ينبع عنه الاعتقاد فقط، ومن ثم خطورتها في أمور الحياة العمومية. أما التصور الثاني وهو قبول الحوار الثنائي، حيث يكون فيه المتخاطبين ندين مختصين في المجال المطروح للمناقشة، وتكون المعرفة والتماس الحقيقة هما المقياس الوحيد الذي يحتكم إليه (محاورة فيدر). ففي التصور الأول يتعلق الأمر بالسفسطة، بينما في التصور الثاني يتعلق الأمر بالفلسفة. **إذا كان الأمر هكذا بالنسبة للأستاذ (أفلاطون)، فما الأمر بالنسبة للتلميذ(أرسطو)؟ أي، هل اتبع أرسطو نفس موقف أستاذه تجاه الخطابة، أم أنه اتخذ موقفا مغايرا كما أغلب الأمور الفلسفية الأخرى؟**

I – 4 – 4 خطابة أرسطو

أخذ أرسطو بالتمييز الذي وضعه أفلاطون بين الاستعمالين المختلفين للخطابة (الخطابة أمام جمهور) والمناقشة بين شخصين ندين، وانتهى إلى الفصل بين نوعين مختلفين هما الجدل والخطابة. لكنه لم ينظر إلى الشكل الأول من الخطابة تلك النظرة القدحية التي رآها بها أفلاطون، بل اعتبرها ذات أهمية كبيرة في تسيير المجتمع وإرساء المؤسسات الديمقراطية.

يحدد أرسطو الخطابة بكونها: "الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان"، وتتقيد بالأجناس الخطابية الثلاثة التالية: التشاورية، والقضائية، والاحتفالية. أما الجدل فأعم من هذا، إنه الإحاطة بالأمور التي يحصل بها الإقناع عامة، وكأن الخطابة هنا مجال مقتطع من مجال عريض هو الجدل. وبذلك يكون مجال هذا الأخير أوسع من الخطابة التي تبقى منحصرة في المقامات السياسية الثلاث: المحاكم، والتجمع الشعبي، والمحافل العمومية الاحتفالية، حيث تتم مخاطبة الجموع شفويا بغاية الإقناع والتحفيز على الفعل.

الملاحظة الأخرى هي أن أرسطو لم يطابق بين الخطابة والسفسطة، بل منحها مكانة سامية تالية لعلم السياسية الذي يعتبر العلم الأسمى، مادام يعمل على تحقيق الفضيلة الأعلى وهي سعادة كل الناس. وبذلك تكون الخطابة داعمة لهذا العلم، لأنها الركيزة الأساسية في الفعل السياسي من خلال الإقناع. فأرسطو مثل جورجياس يعتبر الخطابة فن للإقناع في كل المواضيع الممكنة "الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع". وبذلك يبقى جوهر الخطابة عند أرسطو هو فن مخاطبة العوام، وبالخصوص الخطابة الاستشارية والاحتفالية، التي تلقى على العوام، أي الشعب. أما القضائية فهي أقل تأثرا بالحشود، إذ أنها تلقى أما القضاة. **فإذا كانت هذه هي نظرة أرسطو للخطابة وعلاقتها بالسياسة، فما هي عناصرها الأساسية ومقوماتها؟**

ا – 4 – 5 – المقومات الحجاجية الأرسطية

تستهدف الحجج في النهاية الإقناع أي إكساب المادة درجة أكبر من المصداقية، وذلك بالاعتماد على ما هو عقلي وما هو عاطفي. ويقسم أرسطو وسائل الإقناع إلى صنفين: وسائل إقناع غير صناعية كالشهود، والعقود، والاعترافات؛ ووسائل إقناع صناعية محايثة لفن الخطابة، والتي ترتكز على ثلاث مقومات هي: الباث (الذي يبث الخطاب)، والمتلقي (الذي يتلقى الخطاب)، وأخيرا الرسالة (الخطاب ذاته).

حجج الباث:

قبل إلقاء أي خطاب يجب أولا أن يكون الخطيب موضع قبول عاطفي لدى المتلقي لحظة بث الخطاب وتلقيه. ومن العوامل المؤدية لهذا القبول هو السداد، والفضيلة، والبر؛ فكل من يتصف بكل هذه الخصال ينال ثقة مستمعيه، وهي جوانب تتعلق بالقيم الأخلاقية للخطيب. والحقيقة أن هذا المقوم الحجاجي يكون مطلوبا أكثر في الخطابة الاستشارية، خصوصا في تجمعات الحشود، ويقل في الخطابة القضائية حيث مقارعة الدليل بالدليل.

حجج المتلقي:

يمثل هذا البعد المستوى الأخطر في كل خطابة، مادامت الغاية النهائية في كل خطاب هي التأثير في المتلقي. الأمر الذي يتطلب العناية به والأخذ في الاعتبار أبعاده السيكولوجية، والنفسية، والثقافية، والإيديولوجية. وهذا هو المدخل الرئيسي للتحكم في انفعالاته، مما يسهل أمر قيادته في الاتجاه الذي نريده، والاختبار الأمثل للوسائل القادرة على إقناعه.

حجج الخطاب نفسه:

وهي ثلاثة أنواع حسب صاحب المقالة: القياس المضمر، والمقارنة أو الشاهد، والتفخيم. يتمثل النوع الأول في القياس الأرسطي الذي سبق التطرق إليه في السابق. غير أن القياس قد يغدو خطابيا لكي يعبر عما لا يكون صادقا بالضرورة، بل مجرد احتمال مسلم به عند العامة. وخير مثال على ذلك الشعار الذي رفعه الفرنسيون في الحرب العالمية الثانية الذي يقول

"الأقوياء ينتصرون (المقدمة الكبرى)، نحن أقوياء (المقدمة الصغرى)، إذن نحن منتصرون (النتيجة). وهذا مجرد احتمال لأن الأقوياء لا ينتصرون دائما، وخير مثال على ذلك هو انهزام أمريكا في حرب الفيتنام. وبهذه الطريقة يمكن توظيف القياس الخطابي إن أمكن القول، في مخاطبة الجمهور ومحاولة إقناعهم، أو رفع معنوياتهم كما في المثال الأخير.

أما في الشاهد أو المقارنة، فيتم الانطلاق من فكرة خاصة لتبرير فكرة خاصة أخرى؛ ويقوم على علاقة الجزء بالجزء كما يقول أرسطو. حيث نسعى إلى تأكيد قضية، من خلال الارتكاز على مشابهتها لقضية أخرى. وقد يكون الشاهد تاريخي، حيث يتأسس الإقناع بقضية ما بالرجوع إلى حادثة تاريخية مشابهة، أو يكون الشاهد احتماليا، من خلال تخيل حادثة مماثلة. كما يمكن أن يكون مؤسسا على الخرافة؛ فللإقناع يتم توظيف خرافة ما تتوافق مع المراد إقناع الجمهور به.

وفي الحالة الأخيرة يمكن للإقناع أن يقوم على التفخيم، أي تفخيم الأفكار المتفق عليها عند كل المستمعين. حيث يفسح المجال للمبالغة والتزيين المتوسل بالتشبيهات والاستعارات والتوازي.

هذه هي الملامح العامة للخطابة الأرسطية التي تنضوي كلها تحت الأجناس الثلاثة: التشاورية، والقضائية، والاحتفالية. وهي الأجناس التي كانت وليدة النظام الديمقراطي الأثيني بمحافله الثلاثة: التجمع الشعبي حيث يتشاور الشعب بشأن المشاريع المستقبلية التي تعني الحاضرة، وانعقاد المحكمة حيث يحاكم الأطر المتهمون، والتجمهر العمومي في مناسبات الاحتفالات التكريمية للأبطال الرياضيين والقادة القوميين. لكن تبقى الخطابة هنا مجرد قطعة في مجال عريض هو الجدل، الذي يقوم عل الخلوص إلى استنتاجات انطلاقا من آراء محتملة. **والآن، إذا كانت هذه هي النظرة القديمة إلى الخطابة وعلاقتها بالجدل والفلسفة، فهل بقيت هذه النظرة على ماهي عليها في المرحلة المعاصرة؟ أم أن التطور الذي شهدته مباحث اللغة، واللسانيات، والإنسانيات عموما، غير النظرة تجاهها وتجاه علاقتها بالفلسفة؟**

I – 4 – 6 – خطابة شايم بيرلمان

لقد حاول شايم بيرلمان تجديد النظرية الحجاجية الأرسطية، في وقت كانت الخطابة قد مالت فيه إلى الاهتمام بالمحسنات أكثر، محسنات الأصوات، والكلمات، والتركيب، والأفكار. وبذلك تركز جهده على العودة إلى الأصل وإبراز الأبعاد الحجاجية للبلاغة، وأيضا محاولة ردم الهوة بين البلاغة المعاصرة والتصور الأرسطي لها.

تمثل هذا المجهود في توسيع موضوع الخطابة ليخرج من دوائر الأجناس الخطابية الأرسطية الثلاث: التشاورية، والاحتفالية، والقضائية. وليشمل الخطابات الموجهة إلى كل أنواع المستمعين، سواء تعلق الأمر بجمهور مجتمع في ساحة عمومية، أو تعلق باجتماع المختصين، أو شخص واحد أو بكل الإنسانية. بل إنها حتى تهتم بالحجج التي قد يوجهها الشخص إلى نفسه، في مقام حوار ذاتي. وبكلمة، جعل الخطابة تترادف مع تلك الامبراطورية المترامية الأطراف التي ندعوها الجدل. وبذلك تكاد تغطي كل المساحة التي تمتد من الخطاب اليومي إلى الأدب، والفلسفة، والعلوم القانونية، والعلوم الإنسانية.

بالإضافة إلى ما سبق، حاول بيرلمان أيضا أن يخلص الخطابة من تلك النظرة السلبية التي ارتبطت بها في التصورين الأفلاطوني والأرسطي. فلم تعد شيئا زائدا وأقل يقينية، بل تكتسي أهمية بالغة في الحياة اليومية والعائلية والسياسية. تماشى هذا التوسيع للبلاغة عند بيرلمان، مع محاولة إقامة اندماجية بين أفلاطون وأرسطو بخصوص هذا الموضوع. وجاء ذلك من خلال رفض الانتقادات للخطابة عند أفلاطون في محاورة جورجياس، وتبني الشكل الذي أتت عليه في محاورة فيدر، أي عبارة عن حوار جدلي مرادف لفعل التفلسف.

وبذلك دفع بيرلمان بمجال البلاغة إلى الحدود البعيدة، من خلال دمج الجدل، والإنسانيات عامة، وحتى التحاور اليومي العملي، في نموذج موحد دعاه البلاغة الجديدة. وبذلك وقف على آليات مشتركة بين كل أشكال الكلام، سواء النفسي الشخصي، أو الثنائي الجماهيري، أو

الشعري، أو خطاب المختصين في مجال القانون والعلوم الإنسانية. وبهذا التجديد البيرلماني كفت الخطابة عن أن تكون خطاب العامة والحشود الجهال، كما كانت خطابة أرسطو. لقد أصبحت مع بيرلمان تغطي هذا المجال، وأضيف إليها كل خطاب يسعى إلى تفعيل المخاطب، وإلى وصف كل ما ينأى عن العلم والعقل المجرد، وهذا هو معنى الربط بين الجدل والخطابة في مشروع بيرلمان.

استنتاج عام

يتماشى محتوى المقالة مع أهداف الوحدة، والمتمثلة في تلمس العلاقة اتصالا وانفصالا بين الفلسفة وغيرها من أنماط التعبير الأخرى (الخطابة، والشعر، والتخييل...). ولأن الحضارة اليونانية كانت سباقة لمعالجة هذا الموضوع، فقد ابتدأ صاحب المقالة معالجته انطلاقا من التجربة السقراطية، محاولا تلمس العلاقة بين الفلسفة والخطابة. ورغم أن أفلاطون لم يخصص دراسة مستقلة لتوضيح مثل هاته العلاقة، إلا أنه بالإمكان استنتاج ذلك من محاوراته. فقد أدان الخطابة في محاورة جورجياس لأنها تعتمد على الرأي وتتلاعب بالجمهور، بينما أثنى على الجدل (الفلسفة) كخطاب بين ندين يتوخى الحقيقة.

أخذ أرسطو بنفس التمييز الذي وضعه أفلاطون بين الجدل (الفلسفة) والخطابة، لكنه عالج المسألة بمزيد من التوضيح والشمولية؛ وبذلك انفصل هذين النوعين، وأصبحا مجالين مختلفين، حتى أنه خصص لكل مجال دراسة مستقلة (كتاب الجدل وكتاب الخطابة). يربط أرسطو الخطابة في دراسته بالأجناس الخطابية التي كانت سائدة في عصره وهي: الخطابة التشاورية، والخطابة القضائية، وأخيرا الخطابة الاحتفالية؛ مع عدم ربطها بالسفسطة ومن ثم النظر إليها سلبيا كما فعل سلفه أفلاطون. بل بالعكس لها مكانة هامة مادامت ترتبط بالعلم الأسمى (السياسة). أما الجدل فأعم من الخطابة، إنه يغطي كل مجالات الإقناع، وكأن الخطابة جزء داخل كل اسمه الجدل. وبذلك يكون مجال هذا الأخير أوسع من الخطابة التي تبقى منحصرة في المقامات السياسية الثلاث: المحاكم، والتجمع الشعبي، والمحافل العمومية الاحتفالية، حيث تتم مخاطبة الجموع شفويا بغاية الإقناع والتحفيز على الفعل.

تمثلت مقاربة شايم بيرلمان في توسيع مجال الخطابة/ البلاغة، بحيث تتعدى الأجناس الخطابية التي حصرها فيها أرسطو (التشاورية والاحتفالية والقضائية)، لتنفتح على كل الخطابات الموجهة إلى كل أنواع المستمعين. فالبلاغة الجديدة عنده وعلى خلاف البلاغة القديمة، هي حقل يعنى بدراسة الخطاب الموجه نحو المخاطب/ المتلقي/ الجمهور بمختلف أشكاله المتعددة، سواء كان حشدا متجمعا في ساحة عمومية أو في اجتماع لمختصين، أو كان خطابا نحو فرد واحد أو نحو البشرية جمعاء؛ إنه حقل يفحص حتى الحجج التي نوجهها إلى ذاتنا خلال حوار خاص بيننا وبين أنفسنا. وبالتالي ترادفت الخطابة مع بيرلمان مع المجال المترامي الأطراف المسمى الجدل، لتغطي كل المساحة التي تمتد من الخطاب اليومي إلى الأدب، والفلسفة، وكل الإنسانيات الأخرى.

وبالإضافة إلى تصور بيرلمان للحجاج وعلاقته بأنماط تعبيرية أخرى من بينها الفلسفة، هناك تصورات أخرى وبالخصوص في المرحلة المعاصرة، عملت على تجاوز علاقة التضاد بين الفلسفة وأنماط التعبير الأخرى التي رسخها اليونان. حيث قدم العديد من الفلاسفة مفاهيمهم الفلسفية في أسلوب يمتزج فيه الشعر بالسرد، بعيدا عن المعايير العقلانية الصارمة التي كانت سائدة من قبل. كما أمكن للأفكار الفلسفية أن تقدم في سرد روائي، حيث امتلك هذا الفن الأدبي (الرواية) مع الوقت القدرة معالجة الجوانب الفلسفية للوجود الإنساني في أسلوب فني جميل. وبالتالي انفتح التفكير الفلسفي على مختلف الحقول والأشكال المعرفية الأخرى، سواء تلك التي تعتمد الآليات العقلية في الحكم والتدليل كالعلم والمنطق، أو تلك التي تعتمد الذوق كالشعر والتصوف والسرد في فهم الوجود.

وفي هذا الإطار قام الروائي التشيكي "ميلان كونديرا" بدراسة حول قدرة الرواية على معالجة الأسئلة الفلسفية للوجود الإنساني؛ وهو ما كنا سنتطرق له في جزء مستقل، إلا أن الظروف تبدو غير مساعدة، ما يحتم علينا الاكتفاء بهذا القدر.

توصيات عامة

طلبتي الأعزاء، إليكم الآتي:

- **لقد ارتأيت أن أكتفي بهذا القدر نظرا للظروف التي نمر بها، وبهذا تم إلغاء الجزء الذي كنا سنتطرق فيه لعلاقة الفلسفة بالرواية.**
- **وعليه ستمتحنون في المحاور التي قدمت هنا أي:**

1 – منطق البرهان ومنطق الحجاج وأوجه الاختلاف بينهما، مع التركيز على الاختلاف بين مقدمات كل منهما.

2 - مقالة د. محمد الولي حول الحجاج، أي كيف عالج هذا الأخير الحجاج انطلاقا من أفلاطون وأرسطو، وشاييم بيرلمان. وكيف أبرز تطور الحجاج مع المرحلة المعاصرة، ليصبح مجالا أوسع يمتد من الخطاب اليومي إلى الأدب والفلسفة والعلوم الإنسانية.

متمنياتي لكم بالتوفيق، وبالصحة والعافية لكم ولأسركم الكريمة.